الوسطية والعقلانية

د. محمد عبد العزيز ربيع

الوسطية هي موقف من الآخر ومسلك فردي وجماعي ينأى بنفسه عن التطرف والاتكالية والتخاذل، ويأتي عادة كمحصلة لنهج عقلاني في التفكير والتدبير. وهذا يجعل الوسطية طريقة في التفكير لا تلتزم بموقف محدد أو بنظرية معينة لا تخضع لمنطق العقل والضمير، مما يعني ابتعاد الوسطية عن التطرف والإيمان الأعمى بأيه إيديولوجية دينية أو اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية محددة. إن إتباع منطق العقل والسير على هدي الضمير يجعل الوسطية توجه نحو الواقعية يقوم على أسس علمية وينطلق من وعي اجتماعي ملتزم بقضايا الوطن والمواطن، ويهدف إلى بناء مجتمع يسوده السلم الاجتماعي والعدل وتكافؤ الفرص. وبقدر ما تبدو الوسطية بسيطة يبدو النهج العقلاني معقدا، إذ بينما يمكن لأي فرد في المجتمع أن يكون وسطياً، ليس بإمكان سوى القلة القليلة من الناس إتباع نهج عقلانيً في التفكير يقوم على العلمية والواقعية والمسؤولية الاجتماعية والمجتمعية.

تدعي غالبية المثقفين العرب، من أصحاب الثقافة وأدعياء الثقافة على السواء، أنها تتبنى الوسطية موقفا من الآخر ومن الذات ومن كل ما يطرح عليها من أفكار وما تؤمن به من عقائد وما تواجهه من تحديات. لكن الوسطية، والى حد كبير، هي تبعية تملي السير على هدي أفكار الغير، وتدعو إلى تجنب الأفكار الجديدة والخطوات الجريئة، باعتبار أن الخروج على المألوف من أفكار وسلوكيات هو رفض للتطرف. وإذا كان بالإمكان، بل من الضروري أن يكون الإنسان وسطيا بالنسبة لقضايا المجتمع والدين، فان من غير الممكن، بل من الخطأ، أن يكون الإنسان وسطيا فيما يتعلق بقضايا الفكر والعلم والاقتصاد والحقيقة وغير ذلك. فعلى سبيل المثال إن الإنسان الناشط اقتصاديا ليس بإمكانه أن ينأى بنفسه عن المجازفة باتخاذ قرارات محسوبة ولكن غير مضمونة، تحمل معها احتمالات الربح والخسارة، لأنه لو اتبع مثل ذلك النهج في العمل فلن يكون بإمكانه الاستمرار في السوق طويلا.

كل شخص يفكر بعقلانية على أسس واقعية وعلمية وبروح عالية من الالتزام الاجتماعي القائم على الوعي ليس وسطيا وليس اتكالي وليس متطرفا. فقائد الجيش مثلا وقائد السياسة وقائد القبيلة يقف عادة على رأس القافلة يقودها ويوجه مجريات الأمور ويحاول التحكم في مسيرتها وتسخيرها لخدمة أهداف مجتمعية لا يشوبها الغموض أو الارتباك. والعالم الذي يقضي حياته في معمله يبحث عن علاج لمرض ما أو أداة لرفع كفاءة الإنتاج، أو اختراع جديد لتحسين نوعية الحياة ليس وسطيا. والمفكر الذي يقضي عمره مع الكتب وابتكار النظريات الفلسفية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والمعلوماتية ليس وسطيا، انه كالقائد العسكري والسياسي والعلمي يقف في طرف المجتمع يمسك بزمام أمور محددة، يفهمها ويرى أهميتها المجتمعية، ويحاول أن يبلورها ويطورها لتفتح أمام المجتمع باباً جديداً يعود عليه بالفائدة. ولذا، كان كل مثقف حقيقي، وكل فنان مبدع، وكل مفكر أصيل، وكل مخترع وعالم، وكل قائد ومدير شركة ناجح ليس وسطيا، انه طرف فاعل ومبادر وعليه تقع مسؤولية تحقيق الأهداف المجتمعية، وأهمها السلم الاجتماعي ورفض العنف والتطرف، وقبول الآخر والاعتراف بحقوقه واحترامها.

قال جوته، أشهر فلاسفة ألمانيا، أن الخطأ هو قرار اتخذ بشكل متسرع، لقد آمن جوته بقدرة الإنسان وإمكانياته العقلية ومواهبه الإبداعية إلى درجة كبيرة، ولذلك رآه قادرا، إذا تروّى وفكر بشكل عقلاني، على اتخاذ القرار الصائب وتجنب ارتكاب الأخطاء. وحيث أن ردود الفعل المتسرعة وما يرافقها عادة من تهور وتطرف، هي قرارات تتخذ دون تفكير عميق ودون الاعتماد على نهج عقلاني، فان ردود الفعل جميعا عرضة للخطأ، وان كل ما يترتب عليها

بالتالي من نتائج، حتى الصائبة منها، تحمل معها مخاطر كثيرة واحتمالات قد تلحق الضرر بالمجتمع. وحين تكون عملية اتخاذ القرار متسرعة أو لا عقلانية، أو تأتي كردود فعل غريزية، فان الوقوع في الخطأ يكون الاحتمال الأقوى، والتوصل إلى نتائج تخدم الذات أو المجتمع الاحتمال الأضعف.

يلاحظ المراقب لما يجري في البلاد العربية، والمتتبع للقرارات الحكومية والحزبية، وحتى الفردية، أن معظم تلك القرارات هي ردود فعل آنية على أحداث وتطورات كبيرة وعميقة في غالبية الأحيان والحالات. وعلى سبيل المثال، يلاحظ المراقب أن كل السياسات والقرارات والتحركات التي اتخذت نتيجة لقيام إسرائيل، ومن أجل الرد على سياساتها التوسعية وممارساتها العنصرية كانت ردود فعل آنية، وليست خطوات مدروسة بناء على إستراتيجية طويلة المدى. وحيث أن الإنسان عموماً، وبطبيعته، يحاول دوما أن ينسى ما لا يُفرحه وان يتجنب الاعتراف بالخطأ، فان ردود الفعل الخاطئة لم تُعالج، بل لم تقوم أية جهة مسئولة بالاعتراف بها، مما جعل آثارها تغوص في أعماق الوجدان والمجتمع العربي، تضعفه وتحول دون نهضته.

في عام 1988، وحين خرجت بفكرة الحوار الفلسطيني الأمريكي وكتبت مسودة لإعلان سياسي يصدر عن منظمة التحرير الفلسطينية كوسيلة لحمل الحكومة الأمريكية على الاعتراف بالمنظمة ذهبت إلى زميل وصديق قديم هو البروفسور وليام كواندت وطلبت مساعدته، وذلك لإدراكي الكامل بان المؤسسة الأمريكية لن تسمع لي ولن تعطيني الفرصة لإبداء الرأي وطرح الفكرة عليها. كان جواب كواندت في حينه: إن الحكومة الأمريكية غير معنية بهذه القضية في الوقت الراهن، وان محاولة كهذه لن تنجح، وذلك لأنني أعتقد أن الوقت غير مناسب. وحيث أنني كنت مصمما على السير في المحاولة حتى النهاية، فإنني قلت لكواندت: لقد تعلمت شيئاً ثميناً من خلال تجربتي الدراسية والحياتية في أمريكا، إلا وهي عدم اتخاذ قرار هام قبل التفكير به مليا والعودة إليه في اليوم التالي، وطلبت منه، كما يقولون في أمريكا، "ن ينام على الفكرة"، أي أن يفكر بها خلال الليل ولبضعة أيام قادمة. وبناء على ذلك اتفقنا على الاجتماع بعد أسبوع، وحين التقينا في المرة التالية كانت بعض الأمور قد تغيرت وكانت الفكرة في رأسه قد تخمرت، مما جعله أكثر حماساً مني لعرضها على الحكومة الأمريكية.

وكما يعرف كل من درس هذا الموضوع أو قرأ كتابي "الحوار الفلسطيني الأمريكي" بالعربية أو بالانجليزية the US-PLO Dialogue كانت نتيجة المحاولة هي النجاح، حيث اعترفت الحكومة الأمريكية بمنظمة التحرير الفلسطينية وفتحت معها حوارا أرسى الأساس لما سمي فيما بعد العملية السلمية والتي بدأت في أوائل العام 1989.

لذا، لا يمكن فصل الوسطية عن العقلانية التي تعني إتباع نهج عقلاني وواقعي وعلمي في التفكير، واتخاذ مواقف تعكس مسؤولية اجتماعية عالية بناء على وعي مجتمعي سليم. وبسبب كون العقلانية عملية معقدة لا يمكن بلورتها وفهمها وتبنيها دون إعادة هيكلة الثقافة السائدة، فإن المجتمع العربي، قيادة سياسية وثقافية وتقليدية بقي عاطفيا، يغلب رد الفعل على الفعل في أقواله وتصرفاته ومواقفه.

المعلومات والتواريخ والأرقام وقصص الأجداد ليست ثقافة، الثقافة هي وعي اجتماعي ومجتمعي أولا، وأمانة علمية وشجاعة أدبية ثانيا، ومعرفة بالعصر وقدرة على التعايش معه ثالثا، وهذه أشياء تفتقدها غالبية القيادات العربية الثقافية منها وغير الثقافية.

professorrabie@yahoo.com
التاريخ: 2005/04/12